زوجة

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلي

في مثل هذا اليوم من العام الماضي دعتني صاحبتي لحضور عرسها وقد أسمعتني يومئذ أجمل أناشيد السعادة المرتقبة ، وأرتني الأمل الوضاء إلهاماً وسحراً

يا لفرحة العروس عندما يجمع القدر بينها وبين الرجل الذي تحبه

لا أحسب إلا الفرحة خلقت لها في مثل هذا اليوم . وما زالت صورتها برداء عرسها الأبيض تتراءى لي من وراء الخيال الذاهب تمثل ما كان يحبوها من مرح وبشر لا أدري إن كان مبعثهما ذلك الزواج المرغوب فيه، أم الحب المشبوب الصادق، أم أن الله خلق البهجة والمسرة لها وحدها أم خلقها لها — لا أعرف — والذي أعرفه أنني تمنيت يومئذ أن ينيلني الله ما يبعث في نفسي هذه الفرحة الصافية فأكتسب مثلها من الأمل المحقق طلعة الأطفال الأبرياء وفرحة السعداء المتفائلين ...

وتساءل الناس في شبه همس ما الذي حداها أن تضع باقة زهر البنفسج على صدرها والمفروض أن تضع باقة من الفل أو الياسمين لتماثل لون رداء العرس الأبيض . . . وصوّر كل متسائل السبب حسب ما رسمه ذهنه على ضوء تفكيره وإحساسه . .

وأنا وحدي كنت أعرف السبب . . . فقد أهدى لها خطيبها أول يوم سار جنابها وراءه باقة من زهر البنفسج ثم جعله بعد ذلك تحية معطرة يقدمها إليها كلما لقيها حتى خيّل للفتاة أن هذا الزهر رمز سعادتها المنشودة ومفتاح تفاؤل نفسها المتعطشة لكل ما تتطلع إليه عذراء في سن العشرين من عمرها ... وكانت تحرص كل الحرص على أن يحتفظ الزهر برونقه وعطره حتى أنها راحت تبحث في كتب الطبيعة لتتعلم كيف تصون الزهر من الذبول ، وانتقت له إناء جميلاً كانت لا تعنى بأي عمل في منزلها إلا تنظيفه ، ولم تحاول أن تعرف تنظيف أي أداة من أدوات البيت غيره ...

لم أرها غير مرة واحدة وهي تتقبل منه الباقة — لما زارها في منزلها — تقبلته في فرحة الطفل الطروب الذي عثر على أعز ما يتمناه من لعب قد يكون ذرف في سبيل العثور عليها أحر الدموع . قبلت الزهر في حنان ثم وضعته في الإناء بخفة ما لحقتها فيها أبداً ... كأنها تستودع أحلامها وأمانيها قلب القدر ... حتى في يوم العيد كان يرفق الهدية بالباقة ..

تصرف مألوف كأي عمل معروف . . . إنما الإنسان هو الذي يخلق من العدم الوجود بحسه وتفكيره ... نحن نرى الزهر في كل مكان ونحتفل به كل مكان نتزين به . . . ولكن الإحساس الذي

يغمرها هذا لرؤية الزهر غير ما يغمر ذلك، والشعور الذى ينتابنى حينما أرى الزهر أو الورد وخصوصاً ما ترتاح إليه نفسى ويطمئن إليه قلبى غير الشعور الذى ينتاب صاحبتى أو أى إنسان ... فأنا أرى فى الياسمين معنى يوحى إلى بأحب الأخيلة يننا يمر عليه غيرى غير آبه.

قلت لصاحبتى مرة لأداعبها :

— ما أعجب شأنك . . . إن فى لون البنفسج معنى يدفع المرارة إلى النفس

فضربتنى على شفتى بأطراف أناملها فى لطف وهى تقول :

— لو قدّم لك خطيبك زهر « التيولب » لكانت أحب الزهور إليك

فطوقتها بذراعى وأنا أنظر إليها مسرورة لسعادتها وتفاؤلها قائلة :

— الآن فهمت يا صاحبتى أن السعادة فى المعنى لا المظاهر

ثم حضرت مجلسهما مرة أخرى فشمت فى الرجل غموضاً لا يتفق مع براءة الفتاة ... وأنا أعرف أن الغموض لا يحدث إلا مع عشيقين مدنسين يحاول كل منهما أن يخفى حقيقته ليحظى برفيقه ... أما الخطيبان الحبيبان فلا مكان لتآلفهما غير الصراحة والصدق

وعجبت كيف اتفقا مع تناقضهما ، ولكننى رجحت أن يكون الله جمعهما لحكمة لا يعلمها إلا هو

كانت الفتاة فى نهاية مرحلة التعليم الثانوى ولقد ذهبت إلى المدرسة تنفيذاً لأمر والدها الذى يرغب أن يجعل منها فتاة مستنيرة ولكن الفتاة لا تميل إلى التعليم مطلقاً فقد كانت معى فى المدرسة الابتدائية ثم تركت المدرسة وخلفتها ورائى فى الفرقة الثانية، وظلت هكذا متوانية متأخرة لا تترك الفرقة إلا بعد أن تمكث بها سنتين على الأقل ...

وهى فى المنزل لا تمتاز عن المدرسة لا تحاول أن تساعد أمها فى أى شىء وتستنكر القيام بأى عمل مهما كانت ظروف البيت ، وتعتقد أنها خلقت لتبدى جمالها الذى منحها الله أكبر قسط منه، ولكى تجيد لعب الباسكت والتنس وتقارن بين جمال جريتا ونورما وبين عظمة جارى كوبر ورامون

هى بحق تجيد معرفة كل ما يتعلق بالسينما والمسرح والرياضة والتجميل

وساءلت نفسى يوم علمت بخطبتها : أيمكنها أن تكون ربة بيت ...

وأيقنت يومئذ أنها لا بد عاكفة على دراسة شئون الدار وخصوصاً بعد أن انقطعت عن المدرسة ولكى أتأكد من صحة يقينى سألتها :

— ماذا أنت فاعلة فى مقبل الأيام ؟ علّك بدأت تتفهمين حقيقة الواجبات المنزلية ...

فضحكت فى بلاهة وقالت : أى واجب ياصاحبتى أتظنين أنه يمكن أن أعرف غير مضجعى الذى أقضى فيه ساعات النوم والمائدة التى أجلس عليها وقت تناول الطعام والقيثار الذى أعزف عليه بعض الألحان ؟

قلت: هه.. أتظنين ذلك كفيلا بتهيئة بيتك .. هناك غير ذلك أشياء كثر أجل شأناً وأعظم خطراً — لتهيئة بيتك ليكون كالدوحة الظليلة لزوجك والفردوس الأرضى لأسرتك التى سوف يكل القدر أمر تكوينها وإسعادها إليك ... وتكونين بحكم الزواج ملكة مسئولة عن مملكتها الصغيرة المتواضعة

فهزت كتفيها ومطت شفتيها وقالت فى غير اكتراث : خطيبي يحبنى وأنا أحبه

قلت : للزواج مطالب أخرى غير الحب أكثر خطورة . إن الحب يقنع بكل شىء لأن من صفاته التسامح واللين، أما الزواج فيحتاج إلى العقل والحكمة بجانب القلب والإيمان

فقالت مستخفة : بقى أن تقولى لى ويحتاج للشعر والفلسفة أيضاً …

قلت : ما عنيت هـذا … ولا يمكن أن أقوله لأن هذه ملطفات تلجأ إليها النفس بإيحاء غير مدرك ولا علاقة لها بالزواج ، فالشاعر غير الزوج وكذلك الأديب أو الرسام أو العامل أو الفلاح أو الوزير فسياسة الزعيم فى مكتبه غير معاملته لأسرته، أنظرى إلى الفلاح … إنه أمام صاحب الأملاك كالعبد الذليل ولكنه فى المنزل كسيد آمر قاهر، والدكتاتور كقوة القدر الجائر يبدو أمام الناس ، ولكنه أمام زوجته أو أولاده ألطف من السحر . والذى أرجوه ياعزيزتى كصديقة تحب لك السعادة أن تحاولى معرفة المسئولية التى ستلقى على عاتقك . أنت مسئولة عن سعادة زوجك وتكييف حياته ومساعدته بفكرك وحسك ليسمو بنفسه وأسرته إلى السماك، ومسئولة عن صغارك ليكون لهم فى العالم مكان علىّ : ومسئولة عن بيتك ليكون نجماً عالياً …

فقاطعتنى متهكمة … أى مجمع تعنين يا صديقتى ؟ أتريدين أن يكون بيتى أكاديمية للعلوم والفنون والآداب ؟

ثم ضحكت متهكمة …

قلت : وأجل منها إن شئت … إى والله، أليس البيت كالمملكة يحتاج للآداب والفنون والفلسفة ؟

لا تضحكى فلست هازلة . . . إن أعقد المسائل العالمية تشبه أبسط الظواهر المنزلية . . . إنه مملكة تحوى مجموعة وزارات ، وأنت وحدك المسئولة أمام الله والشريعة والناس عن رياسة هـذه الوزارات وتسييرها بحكمة تتطلب منك عقلاً عليما يشبه عقل وزير المعارف وسياسة وزير الخارجية وحكمة وزير الداخلية وإدراك وزير الصحة ولباقة وزير التجارة والصناعة وذكاء وزير الزراعة وقوة وزير الحربية . وأخيراً لك قلب الملك الصالح . فظلت تضحك حتى كادت تستلقى على ظهرها وهى تقول : ما دام فى وسع زوجى أن يحضر إلىّ الخدم فماذا يهم ؟ حسبى أن أشرف على الوزراء .. وقهقهت، وساورتنى مرارة من الشك فى سعادتها المرتقبة ولكننى لم أشأ أن أكون متشائمة . فقلت : يا منى : الخادم لا يمكن أن يحسن العمل إن لم يلحظ فيك خير مثال للعاملين النابهين . أبعدى عن ذهنك يا عزيزتى هذا الخاطر ، وتأكدى أن بيتك لا تثبت أركانه إلا إذا ثبتت قوائم عرشك فيه بفضل قلبك وعقلك

إفتحى قلبك .. وحكمى عقلك ..

ليكن هذا شعارك دائماً .

وهنا دخل الخطيب فهرعت إليه تقول : أحمد ، جيجى تخيفنى من الحياة الزوجية ..

فربت الخطيب على خدها فى لطف قائلاً :

لا شك أنها تداعبك .

قالت فى دلّ ظريف : بل تجد ! ..

فلم أشأ أن أصارحه بالأمر خوفاً من أن يكون

على يقين من أنها ملمة بشئون البيت . فأفتح ناظريه على ما لا يعلم فيرتد .

فقلت : إسمع يا سيدى ... كنت أتصفح هذه المجلة فأعجبنى ذلك القصيد ... قلت لها اسمى ...

فقالت : لا أحب أن أسمع غير كلام خطيبى .. وأنت تعرف أننى أحبها ... (فطبعاً عزت) ... وإذا كان هذا حالها اليوم فما عساها تفعل بعد الزواج ؟ طبعاً ستنسى جيمى .

فابتسم وقال : وهل يمكن أن تنساك ؟ إنها تحبك ؟ ! ... وكل ما فى الوجود يذكرها بك .

فقاطعته قائلة : لا ... إنها لم تقل ذلك ، ولكنها تقول : يجب أن أقوم بشئون البيت . ثم دنت منه رابتة على كتفه فى خفة مرحة : وأنت تعرف أننى لا أعرف أى عمل فى البيت . ثم مطت شفتيها وهى تقول : حتى ملابسى لا أعرف كيف أنظمها أو أعلقها على المشجب . فضحك طويلاً وقبض على يدها وهو يقول : لا تفكرى فى هذا .. سيقوم الخدم بأعمال البيت ، وأنا مستعد يا حبيبتى للقيام بكل عمل بدلاً منك . . .

فنظرتُ إليه فرحة ، وقد شاع طرب نفسها من كل خالجة فيها . لكننى تألمت إذ كان فى مقدوره أن يهيب بها إلى تعرف المسؤولية فى لطف لتحاول أن ترضيه على الأقل ولكى يشعرها بقيمة حياتها ، وضرورة تأدية واجباتها ـ ولو فعل ـ لردها إلى عقلها وعملت على تعرف ما لم تعرف .

فقلت فى شبه دمدمة : وإذا مرض الخادم ؟ فأعقبت : غيره يقوم بعمله .

قلت : لنفرض أن الخدم تآمروا عليك ، وتركوك بغتة كما حدث لإحدى الملكات فماذا تفعلين؟

فهزت كتفيها ، ونظرت إليه كأنها تستلهمه الجواب، فقال مسرعاً : أقوم أنا بكل شىء .

قلت : ولكنك لا تعرف واجبات ربة الدار والزوجة والأم ، أنت تعرف واجب الزوج ورب الدار .

قال مستخفاً : ياستى نستمين بكتاب التدبير .

فقالت ضاحكة : آه نسيت « مرشد الفتاة »

قلت : وغيره إن شئت ... إنما التجارب أنفع من القراءة .

ووجدت من العبث أن أحملهما على تعرف ما وراء المستقبل القريب لأنهما فى نشوة الحب .

فانسحبت راجية لهما كل خير وتوفيق .

* * *

واليوم عيد ميلاد زفافها السعيد ، وقد مضى العام دون أن أراها إذ سافرت مع زوجها بعد الزفاف مباشرة إلى مقر عمله ، وأتتنى رسالة منها البارحة تنبئنى بأنها نقلت منذ أيام إلى المنصورة وأنها متلهفة لرؤيتى ...

وتذكرت أن ذاك اليوم عيد ميلاد زفافها فذهبت إليها لأقدم إليها تهنئتى الصادقة ولعلنى كنت شغوفة لرؤيتها بعد ذاك العام لأعرف ماذا فعلت بحياتها الزوجية وكيف صارت .

وهرعت إليها وبى من الشوق إليها ما يزرى بشوق كل حبيب .

وطرقت بابها وقلبى يخفق ويكاد من لهفة الحنين يصمت . . .

ولما فتح الباب أدخلتنى الخادم فى غرفة (الصالون) ومرت دقائق ، وأنا وحدى أنتظرها، تأملت خلالها محتويات الغرفة . ولشد ما أدهشنى أن أرى الأثاث

الجديد يبدو كأنه من تراث جدها القديم! أى خيبة ساورتنى عند ما لمحت الإهمال يتجسم فى الغرفة ؟

ورددت طرفى لكيلا أشوب حرارة حنينى بمرارة أنين نفسى لما أصابها من ألم له فى عالم الحقيقة صورة مرتسمة فى أرجاء هذا (الصالون) . . .

ودخلت (منى) وقبل أن أعانقها ارتمت على صدرى كأنما شاءت أن تستودعه حرارة وجدانها لتستريح حتى أحسست أن كل كيانى بحرارتها يحس وينتفض... ثم رفعت وجهها بيدى وأنا أتأمل الوجه الجميل فى شغف لأتبين وجه المرأة وأقارن بينه وبين وجه العذراء ...

أجل ... نظرت إليها طويلاً لأقارن بين وجه رفيقة طفولتى وبين وجه المرأة التى تخطت قبلى عتبة باب المسئولية

وظللت هكذا أتأملها لأقارن بين حياة الحلم الماضى والواقع الراهن ، وبين حياة المتمة والحرمان كما يقولون ...

لم تتكلم ونظرت إلى بعينين دامعتين وشفتين مرتعشتين ... ولم أتكلم ونظرت إليها بعينين شاع منهما خوفى عليها وحبى لها ، وقد بدت ظلال هذا الشعور الحار المتوثب على شفتى فى شبه بسمة مريرة

وأخيراً تمتمت بصوت من يستيقظ بعد حلم عميق : منى ...

فأجابتنى بصوت مرتعش كأنه قطرات من الماء الصافى تنسكب فى هوادة ورقة تمازجها قوة لا تبين : جيمى ...

قلت : أخيراً التقينا ... مضى العام ... اثنا عشر شهراً هى فى حسبانى اثنا عشر عاماً ...

ونظرت إليها نظرة معناها : أليس كذلك ؟

قالت : بل اثنا عشر دهراً يا جيمى

قلت : إذن أحسست بالوحشة كما أحسست بها ولقد ظننت أن زوجك أنساك جيمى وسعادتك . محت من ذاكرتك ذكريات الطفولة المليئة بأجل ما فى الحياة من طهر ومرح وحلم وسذاجة

فتنهدت قائلة : ليت هذه الأيام يا جيمى قيدتنا فى باطن الغيب كما تقيد الجاذبية البدر بين الأرض والشمس ، أو لعلنا متنا قبل أن تتفتح بصائرنا على ضوء الأحلام والآمال فتتخيل . . . حتى إذا داهمنا الواقع رأينا الحياة تخفى وراءها من الحقائق ما تخفى ...

وغالبت دموعها — على ما أظن — لأننى لمحت الضوء يبدو فيهما ويتلاشى ليبدو أكثر قوة والتماعاً

وكانت لهجتها متكسرة عميقة بطيئة كأنها آتية من أعماق الأبد ... تخرج قوية ثم تفتر وتتلاشى لطول مسافة الزمن ... فعجبت لهذا المظهر الجديد الذى لم أتبينه فيها من قبل فقلت : لم يكن فى حسبانى أن الزواج يعلم الفلسفة ، أهكذا يمنحك الزواج من من الحكمة فى عام ما لم تمنحك إياه الحياة فى عشرين عاماً ... يا عجباً !!

قالت : وعلمنى أكثر ... ثم أسندت رأسها إلى صدرى كأنها تحاول أن تتخيل ـ بالإحساس على الأقل ـ أنها مرتكزة على صدر حنون . ثم رفعت بصرها إلىّ فى التماع مترقرق بالدمع الحار وغمغمت : جيمى ... كيف ترينى ؟

قلت : آه . أنسيتنى ما يجب أن أقوله ... ترى هل جئت بجميلة أو جميل ، وكنا اتفقنا منذ زمن أن تسمي كل منا بكرها باسم صديقتها تخليداً لذكرى الصداقة الأكيدة البريئة

فتمتمت بشفتين مبللتين بالدموع : جاءت حبلة ...

ولم أدعها تتم عبارتها وغدوت أبحث عن الطفلة الجميلة التى كانت تتصورها قبل زواجها أجمل أطفال العالم، ورسمت لها منهج حياتها رسماً يسمو بها فوق متن الريح لتستقر على عرش الطهر والرفعة والكمال

هرعت إلى مخدعها علّ الصغيرة نائمة فيه ... تدفعنى عواطفى لالتهامها كأنها كانت ابنة روحى قبل أن تكون ابنة أمها . ولما لم أجدها فى مخدع الأم ضحكت من خيالى الذى أنسانى أنها لا بد أن تكون فى مخدع صغير خاص جعل لنوم الصغيرة بعض الوقت ، وتحرسه ملائكة الرحمة والحب كل الوقت ، ولكننى لم أجد السرير الصغير أيضاً ..

أتكون فى غرفة أخرى ؟ لا بد . وقبل أن أغادر الغرفة لحقت بى منى قائلة: حسبك تعباً . وجذبتنى فى رفق وهى تقول : لم يشأ الله أن يتركها تحت تصرف القدر الجائر . فاستردها ليستودعها حنان حور الجنان . ثم صمتت من فرط الالتياع وتركت دموعها تعبّر عن أساها .

ففهمتُ وحنوت عليها أشجعها بأجمل الأمانى المرتقبة قائلة فى النهاية : آمنى بالله ! فقالت بلهجة الخشوع :

عندما ولدتها وجربت كيف يفصل الله بين الزوجين بقدرة قادرة .. آمنت بالله وأقمت له الصلاة

ولما ماتت وكنت يومئذ متبرمة من حياتى ناقمة على ولادتها ... ازددت إيماناً به ورحت أرتل باسمه بكرة وأصيلا . .

قلت وأنا أشد منها إيماناً : يا سبحان الله ... فى لحظة يثبت لنا الله قدرته وعظمته بما تعجز عن إثباته قوى العالمين فى أجيال. ثم اغتصبت ضحكة لأرفه عنها وقلت : أنذكرين يا « منى » يوم كنت أدعوك لتؤدى فريضة الصلاة معاً ؟ . . . كنت تضحكين وتسخرين منى وتقولين : فرضت الصلاة على الناس يوم كان لا عمل لهم . أما اليوم فالوقت يضيق بالعمل والجهد . ثم تبتسمين فى بلاهة وتردفين : إن الله غفور رحيم ...

ولطالما حاولت أن أغالب شيطانك بنصحك فكنت أفشل لأن تأثير بيئتك كان أشد وأقوى عليك منى . . . لأن أمك متمدينة متطرفة لا تقيم للحياة ميزاناً إلا بما تجلبه عليها من طرب ومسرة ومتعة ...

وهنا لمحت الأسى يغالبها فسحبت رأسها وأسندته إلى صدرى ورحت أنا أفكر فى ماضيها وحاضرها . وأقارن بين هذا وذاك ...

من يصدق أن منى المرحة الطروب الجاهلة التى تبدو كأنها فى سن الثامنة من عمرها أو أقل بيناهى قد بلغت الحلقة الثانية منه من يظن أنها الآن تبدو وكأنها فى سن الخمسين من عمرها مع أنها لم تزد على العشرين غير عامها الأول من عمر الزواج ؟

تبدل بالمرح سكون رهيب مخيف وتلاشت النضارة ليحل مكانها الشحوب البارز .

لمن لم يصدق أن يقارن بين ابنة العشرين الحالمة المتفائلة ، وبين أختها المتألمة المتشائمة ليعرف أن عمر الحياة ليس فى حساب الزمن إنما فى معناه وما يجلبه من مرح أو ترح . وفجأة تذكرت زوجها ...

فرفعت وجهها فى رفق وأنا أقول : فاتنى أن أسألك كيف حال زوجك ؟.

فنظرت بعيداً كأنها تفكر فيا تقوله .

فعجبت لهذا المنظر واضطررت أن أكرر سؤالى: زوجك كيف حاله ؟

فتنهدت وأطرقت قائلة بصوت خفيض : بخير . فشمت فى لهجتها سراً رهيباً أفزعنى وراعنى أنها جعلت حيزاً من الفراغ بين (زوجى بخير) حتى أحسست أنها تفصل بينهما لكيلا تصل بين زوجها والخير

فارتمدت وخفت أن يكون جدّ لها مالا أرجوه فقلت لأستدرجها : أهو على سفر ؟ المفروض أن يكون فى المنزل اليوم لأنه يوم العطلة الرسمية …

فقالت وقد اعتدلت كأنها تتأهب لمصارحتى بما كتمته عنى : أتعرفين صلاح ؟

قلت : كيف لا أعرف زوجك ؟ مالك شاردة كالذاهلة هكذا ؟ أترين مجيئى أزعجك ! ! عله لا يبيح لك لقاء صديقاتك ، إن كان ذلك كذلك فدعينى أنصرف وحسبى أننى رأيتك فكل ما أتمناه هناك

ووقفت أتأهب للانصراف فأجلستنى فى هدوء وهى تقول : جيمى ، كان يجب أن تفهمى كل شىء بمجرد رؤيتى ، وأنت أعرف الناس بطبيعتى . . . من كان يظن أن « منى » الزهرة الناضرة تذبل دون أوان؟ ولطالما قلت لك عند ما كنت أراك تتألمين لمشهد محزن : يا صديقتى … خلقنا لنضحك وإذا عشنا لمشاطرة الناس آلامهم ماذا نستبقى من الزمن للفرح . . لا شىء بالتأكيد. إذن خير لنا أن نخلق البهجة والمسرة لنغلب بها الحزن والضنى …

ولطالما داعبتك بنوادرى لأبدد تجهمك ولا أتركك حتى يسمع الجيران ضحكنا ..

قلت : حقاً ، ولقد حرمت متعة الضحك الأكيد منذ فارقتك

قالت : إذن ماذا تفهمين من دموعى

قلت : قد تكون الدموع من تأثير الفرح كما تكون من تأثير الحزن. ولقد تعمدت أن أتجاهل ما انتابنى من شك فى سعادتها لأستنطقها

فقالت : قولى ذلك لمن لا يعرفك . . . أما أنا فقد علمتنى كيف أعرف ماذا أنت قائلة قبل أن تفصحى عن مرماك

قلت: تغرير جميل … من تعليم مدرسة الزواج حقاً. كل ما فيك قد تغيّر …

فقاطعتنى : ذهب جمالى وتلاشى فرحى وماتت بهجتى …

قلت : أمن أجل موت طفلة تميتين نفسك حسبك زوجك والله نعم المعوض … وماذا يجدى الحزن ؟ …

قالت : لم يكن مصابى فى ابنتى كمصابى فى زوجى

فاضطربت وقلت : أمريض هو ؟

قالت : لو كان لهان الخطب ، على الأقل كنت أتعزّى بالأمل فى المعافاة

قلت : لهجتك مروعة تخيفنى ، أفصحى ماذا جرى ؟ …

قالت : مات وهو حى

قلت : يا لله ! هل أصابك مس من الجنون يا « منى » كيف تتهمين زوجك الحبيب بالموت وهو حى

صمتنا إذ سمعنا طرقاً على الباب . فازداد وجه

صاحبتي امتقاعاً ثم سمعناه يسأل الخادم بلهجة جافة : من هنا ؟

فقلت لها : اسرعي إليه لتستقبليه ثم تعالى معه إلي — إن شاء — لأحييه

فلم تتحرك ولازمها الوجوم ... وقبل أن أحملها على الخروج دخل علينا وقد ابتسم — ولعله تكلف البسمة — قائلاً : كيف حال الآنسة ؟ أراك على أحسن حال ، صحتك ونضارتك ...

فقاطعته لكيلا يستطرد : وأنت علك كذلك

فقاطعني : الجو هنا بديع ... بديع جداً ...

ففهمت أنه لا يريد أن يعترف بأنه على خير ويأبى أن أشتم رائحة سوء تفاهمهما ...

فاحترمت رغبته واستأذنت لأنصرف وقبل أن أصافحهما خاطبها بلهجة جافة : لقد نسيت هنا بعض أوراق رسمية في غلاف كبير ، أين هو ؟

قالت : لا أدري !

قال (موجهاً الكلام إلي) : اسمي « ياستي » الهانم (مديرة البيت) لا تعرف أين يضع زوجها حاجياته .

فابتسمت على مضض قائلة لها : أنت مخطئة يا مني إن كان ذلك حقاً ... على أنك لا بد تريدين أن تعلميه كيف يأخذ معه أوراقه خوفاً من أن تتعطل أعماله . لاشك ، وأظنه عقاب حلو يا صلاح بك

فقاطعني : ذلك تعليل قد أقبله لو كنت أجهلها . ثم انفجر كالبركان الثائر مردفاً :

إنما حضرتها لا تعرف كيف تكون زوجة ... أقوم في الصباح ... أرتدي ملابسي وحدي وهي في مضجعها وإذا قامت فلكي تقول لي لا تتأخر فضحكت : جميل أن تدعوك دائماً إلى العودة لتأنس بك وأجمل منه أنها تعلمك الاعتماد على نفسك لكيلا تعجز عن ارتداء ملابسك إذا كانت مريضة مثلاً أو على سفر !

قال : يا آنسة . . يخجلني أن أصور لك مبلغ إهمالها وعدم اكتراثها بحياتها المنزلية . . أعرف أنك صديقتها ، وأعرف أن لك في الحياة رأياً سديداً . فماذا تقولين لمن تعجز عن إعداد الغداء إذا خرج الخادم ونضطر لأكل الجبن والزيتون في الظهر . أو استحضار اللحم والخضار من (مطبخ) السوق

فصرخت في وجهه : حضرتك تعرف أنني لا أعرف كيف (أطبخ) ؟ وتزوجتني وأنت تعلم أنني لا أعرف أن أؤدي أي عمل منزلي ؟ فقاطعها : لكن الفتاة في بيت والدها غير المرأة في بيت زوجها ...

وهنا خفت أن يشتد عراكهما ؛ فسحبت صديقتي وخرجت بها إلى الخارج ، ثم رجوتها أن تتركه ريثما يهدأ وتباشر الخادم لإعداد لوازم راحته وتعمل له كوبا من الليمون أو الشاي أو القهوة حسب ما يجب . وتركتها بعد أن هدأتها ، وقد فهمت من حوارهما لم مات قلب الرجل ، ولم شقيت المرأة .

ولما عدت إليه وعدته أن أرشد صاحبتي إلى ما تجهله من شئون الدار . ولما هدأ قلت بلهجة جادة : اسمح لأختك أن تقول لك كلمة تقبلها مني بسعة صدر الرجل الحكيم ، تذكر أنني أعرف كيف تحابيتما وتزوجتما وأنك قلت لها على مسمع مني إنك رضيت بها زوجاً حبيبة ، ولم تأبه يومئذ لعجزها عن تأدية مهماتها ، فما ذنبها ياسيدي ؟

فكر واحفظ الجواب لنفسك وخذ من الجواب ما يعينك على توجيه زوجك إلى حياة الاستقرار

« المنصورة » جميلة العلايلي